Jon Hoover, "Tafāsir al-mufassirīn al-qudamā' li-l-āyatayn 75 wa 76 min sūrat al-Nahl (Ancient Interpretations of Surat an-Nahl 75 &76)," *Theological Review of the Near East School of Theology* 28.2 (November 2007), 1-8 (Arabic Section).



# تفاسير المفسرين القدماء للآيتين ٧٥ و٧٦ من سورة النحل

جون هوفر*

**﴿ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾** (٧٥) **﴿وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم﴾** (٧٦) سورة النحل.

## المقدمة

كنتُ أقرأ القرآن في يو م من الأيام فتوقفت عند الآيتين ٧٥ و ٧٦ من سورة النحل لكي أتأمل فيهما قليلاً لكن لم يتّضح لي معنى هذين المثلين. فاخترتهما لِما فيهما من الغموض لهذا البحث القصير الذي غرضه الاطلاع على ما يقوله المفسرون القدماء عنهما. فقرأت التفاسير التالية بالترتيب الزمني: الطبري (ت. ٣١٠هـ) والرازي (ت. ٦٠٦هـ) والقرطبي (ت. ٦٧١هـ) والبيضاوي (ت. ٦٨٥ أو ٦٩١هـ) وابن كثير (ت. ٧٧٤هـ) والجلالين (القرن التاسع الهجري). وبين يديك نتائج هذه القراءة.[1]

* أستاذ مساعد في الدراسات الإسلامية، كلية اللاهوت للشرق الأدنى.

١ انظر أيضاً الملخص لهذه النتائج في الجدول المُلصق بنهاية الدراسة.

ومن الجدير بالذكر أنني أتجنب في هذا البحث أمورا تتعلق بالفقه في التفاسير ـ مثل تطبيق ﴿**عبدا مملوكا**﴾ على حقوق العبيد ـ وأركز في التفسير اللغوي للمثلين.[٢] ومن ناحية أخرى يكرر المفسرون الذين يَتلُون الطبري أشياء كثيرة مما قاله وفوق ذلك يضيفون تفاصيل. وهنا لا أعرِض إلا مواقف المفسرين والنقاط الرئيسية الجديدة التي وجدتُها في تفاسيرهم.

## الطبري (ت. ٣١٠هـ / ٩٢٣م)

بادئ ذي بدء من الممكن الإشارة إلى أقوال المفسرين الأولين التي يخرّجها الطبري تخريجا مفصّلا. وعن ابن عباس (ت. ٦٨هـ / ٦٨٨م) قوله أن المثل الأول في النفقة. يعني: ﴿**عبدا مملوكا لا يقدر على شيء**﴾ هو الكافر الذي لا يقدر أن ينفق و﴿من رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا﴾ هو المؤمن الذي ينفق. والمثل الثاني في الأعمال، أي: ﴿**رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه**﴾ هو الكافر الذي هو كلّ ـ أي ـ ثقلٌ ـ على مولاه لا يعمل شيئا و﴿**ومن يأمر بالعدل**﴾ هو المؤمن.

قال ابن عباس أيضا إن المثل الأول نزل في رجل من قبيلة قريش فـ﴿**من رزقناه**﴾ هو هذا الرجل و﴿**عبداً مملوكا**﴾ هو عبده. وقال إن المثل الثاني نزل في عثمان ابن عفان وعبده. فـ﴿**رجلين أحدهما أبكم**﴾ هو العبد وهو كره الإسلام ونَهَى النفقة في سبيل الله. و﴿**من يأمر بالعدل**﴾ هو عثمان الذي أنفق على عبده بدون فائدة.[٣] يعتبر فخر الدين الرازي هذا القول ضعيفا لأن الكلام في ﴿**رجلين**﴾ «غير مختص بشخص معين». يذكر القرطبي أقوالا أخرى في سبب نزول المثل الثاني. قيل إنه مثل لأبي بكر و عبد كافر له. وقيل إنه مثل لأبي

٢ انظر تفسير القرطبي على وجه الخصوص إذا أردت أن ترى تفاصيل الأمور الفقهية في هاتين الآيتين.

٣ من المعروف أن عثمان بن عفان الخليفة الثالث حسب عقيدة أهل السنّة. ومن الواضح من تشبيه عثمان بـ﴿**من يأمر بالعدل**﴾ أن ابن عباس والطبري الذي خرّج قوله بدون نقد كانا من أهل السنة وليسا من الخوارج أو الشيعة الذين شتموا عثمان بسبب بعض أعماله غير المرغوبة فيها.



جهل (الأبكم) وعمّار بن ياسر العَنْسِي الذي عذّبه وأُمه أبو جهل على إسلامهما. وقيل إنه مثل لأبي بن خلف (الأبكم). وقيل إنه مثل للكافر هشام بن عمرو بن الحارث الذي عذّب محمدا. وبالرغم كل ذلك فلا تَهُمّ المفسرين هذه الأقوال في سبب نزول الآيتين أهمية كبيرة وبدلا من أن يؤسّسوا تفسيرهم على سبب نزول الآيتين، يركّزون في المعنى العام.

بالإضافة إلى قول ابن عباس يرِد في تفسير الطبري أيضا قول مجاهد (ت. بين ١٠٠هـ / ٧١٨م و١٠٤هـ / ٧٢٢م) وقول قتادة (ت. ١١٧هـ / ٧٣٥م). وعن مجاهد أن المثلين كِليهما في الله وما يُعبَد من دونه. أي ﴿**عبدا مملوكا**﴾ هو الوثن و﴿**من رزقناه**﴾ هو الله. وفي المثل الثاني يشير ﴿**رجلين أحدهما أبكم**﴾ إلى الوثن و﴿**من يأمر بالعدل**﴾ إلى الله. وعن قتادة القول إن ﴿**عبدا مملوكا**﴾ هو الكافر و﴿**من رزقناه**﴾ هو المؤمن. وفي الآية التالية ﴿**رجلين أحدهما أبكم**﴾ هو الوثن و﴿**من يأمر بالعدل**﴾ هو الله.

أما الطبري نفسه فيتبنّى قول قتادة في تفسير الآيتين. وفي الآية الأولى ﴿**عبدا مملوكا**﴾ مثلٌ للكافر الذي لا يطيع الله ولا ينفق في سبيله «لِغَلَبة خذلان الله عليه» أي حيث إن الله تركه. و﴿**من رزقناه**﴾ مثلٌ للمؤمن الذي يطيع الله وينفق ﴿**سرا وجهرا**﴾ من المال الذي يعطيه إياه الله. ومن ثم يسأل القرآن في المثل الأول: فبالنسبة إلى هذا العبد المملوك والحر الذي ينفق من رزقه، ﴿**هل يستوون**﴾؟ بالطبع الإجابة «لا!» يوجد فرق كبير بين الكافر والمؤمن!

من ناحية أخرى يرفض الطبري تشبيه الوثن والله بهذا العبد وهذا الحُرّ ـ وهذا الرفض يعكس قول مجاهد ـ لأن الله هو «الرازق غير المرزوق» أيْ من المستحيل أن قول ﴿**من رزقناه**﴾ يرمز إلى الله إذ أنه يرزق الجميع ولا يرزقه هو أحدٌ. وعلى حد ما يقول الطبري «فغير جائز أن يمثَّل إفضالُه وجوده بإنفاق المرزوق الرزق الحسن».

ولكن الطبري يرى أن الآية الثانية مثلٌ للصنم والله. فالصنم يقارَن برجل أبكم أيْ رجل لا ينطق ﴿**لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه**﴾ إذ أن الصنم

لا يسمع ولا يتكلم وفوق هذا هو معمول من الخشب أو النحاس ومن ثم هو كلٌّ ثقيل على عبدته الذين يحملونه هنا وهناك. وفي قول ﴿**أينما يوجهه لا يأت بخير**﴾ تمثيل للصنم لأنه لا يفهم ما يقال إليه وما يؤمَر به. ولذلك القرآن يسأل: هل هذا الصنم يستوي ﴿**من يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم**﴾؟ أي هل يستوي الصنم والله الناطق المتكلم الذي «يأمر بالحق ويدعو إليه؟» وبالطبع الإجابة «لا!»

في رأي الطبري لا يوجد احتمال لتطبيق المثل الثاني على الكافر والمؤمن كما يفعله ابن عباس لوجود كفار كثيرين في إمكانهم أشياء وأعمال كثيرة. أيْ لا يوصف الكفار على وجه العموم بقول ﴿**أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه**﴾. من هنا من الممكن أن نسأل نحن إذا كان المثل الأول وقوله ﴿**عبدا مملوكا لا يقدر على شيء**﴾ تمثيلا مناسبا للكافر حيث إن بعض الكفار ليسوا بهذا الوصف. لعل الطبري يستطيع أن يردّ من تفسيره لهذا المثل قائلا إن هذا الكافر من الكفار الذين يخذُلهم الله ولا يستطيعون النفقة في سبيله.

ويضيف الطبري تفسيرا لـ﴿**وهو على صراط مستقيم**﴾. إذا كانت هذه الآية بقولها ﴿**من يأمر بالعدل**﴾ ترمز إلى الله، فما معنى القول إن الله ﴿**على صراط مستقيم**﴾؟ يذكر الطبري أن الله على الحق ولا يترك الحق أبدا. وعلى حد قوله، الله «مع أمره بالعدل، على طريق من الحق في دعائه إلى العدل وأمره به مستقيم لا يعوج عن الحق ولا يزول عنه».

## الرازي (ت. ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م) والقرطبي (ت. ٦٧١هـ / ١٢٧٢م)

ويأخذ الرازي والقرطبي الآيتين الاثنتين كمثلين للأصنام والله كما يفعل مجاهد. وفي رأي الرازي هذا بسبب ورودهما في سياق يتناول إثبات توحيد الله. وهدف المثلين هو «إبطال مذهب عبدة الأصنام» (الرازي). ولسوء الحظ لا يعالج الرازي مباشرةً اعتراضَ الطبري على هذا التفسير للمثل الأول ـ



أيْ ليس ﴿**من رزقناه**﴾ تمثيلا لله لأن الله لا يُرزَق. غير أن الرازي لا يركّز في التمثيل بل في الفرق الكبير بين العضوين في المثل. أيْ لا يمكن للعاقلين أن يساووا بين الأصنام والله كأنه لا يمكن أن يساووا بين عبد مملوك وبين حرّ ينفق مِن رزقه. وعلى حد قول الرازي نفسه: «أن المراد أنا لو فرضنا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء وفرضنا حرا كريما غنيا كثير الإنفاق سرا وجهرا، فصريح العقل يشهد بأنه لا يجوز التسوية بينهما في التعظيم والإجلال فلما لم تجز التسوية بينهما مع استوائهما في الخلقة والصورة والبشرية، فكيف يجوز للعاقل أن يسوي بين الله القادر على الرزق والإفضال وبين الأصنام التي لا تملك ولا تقدر البتة؟».

أما القرطبي فيقول شيئا من هذا القبيل أيضا في تطبيق المثل على الأصنام والله. ولا يُؤثِر تفسير قتادة بأن المملوك هو كافر والحر هو مؤمن رغم أنه ـ أي القرطبي ـ يذكره.

ويروي الرازي قولا آخر مختلفا في الآية الأولى، فـ﴿**عبدا مملوكا**﴾ هو الصنم و﴿**من رزقناه**﴾ هو عابد الصنم الذي رزقناه الله كأي إنسان آخر. فيُكمِل الرازي «فهنا صريح العقل يشهد بأن عابد الصنم أفضل من ذلك الصنم فكيف يجوز الحكم بكونه مساويا لرب العالمين في العبودية؟» ولا يرد هذا التفسير للعبد المملوك والحر المنفق في كتاب آخر من الكتب التفسيرية التي قرأتها.

يعرض الرازي لنا اعتراضات على تفسير المثل الثاني بالأصنام والله. فقيل إن تشبيه الله برجل على صراط مستقيم لا يليق بالله وتشبيه الصنم برجل لا يجوز بسبب الفرق بينهما. بيد أن الرازي يعتبر هذا الاعتراض ضعيفا لأن المقصود هو التشبيه في بعض الوجوه ليس كلها.

ويتعرض الرازي والقرطبي لمسألتين لا يتعرض لهما الطبري. في المسألة الأولى يشير الرازي كما يشير المفسرون بعده إلى أن الكلمة ﴿**مملوكا**﴾ صفة مميزة للعبد في هذه الآية. فإذا كان هو عبدا لم يوصف بالملك، فقد يكون عبد

الله بمعنى أيّ إنسان. لكن القرآن يميّز هنا بين العبد والحر بكلمة ﴿مملوكا﴾ ليوطّد الفرق بينهما.

والمسألة الثانية هي مسألة جمع فاعل الفعل ﴿**يستوون**﴾. من المتوقع من السياق أن يكون الفاعل مثنى فلماذا هو جمع؟ فيقول الرازي إن «معناه هل يستوي الأحرار والعبيد» ويقول القرطبي إن ﴿**يستوون**﴾ ليس (يستويان) إذ أن اسم الموصول المبهم «من» يصلُح للمفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث والمقصود بمفرد ﴿**عبدا مملوكا**﴾ و﴿**من رزقناه**﴾ «الشيوع في الجنس».

## البيضاوي (ت. ٦٨٥هـ /١٢٨٢م أو ٦٩١هـ /١٢٩١م) وابن كثير (ت. ٧٧٤هـ / ١٣٧٣م)

يروي ابن كثير نتائج تفسير الطبري ولا يضيف شيئا آخر بينما يعطي البيضاوي ملخصا وجيزا للأمور اللغوية التي يتعرض لها كل من الطبري والرازي والقرطبي ولا يُبيّن إيثاره في تفسير المثلين بل يذكر الكافر والمؤمن من جهة والأصنام والله من جهة أخرى كاحتمالين لتفسير كل من المثلين، إلا أنه يقول شيئا مثيرا في تفسيره للآية التي تسبق المثلين. والآية تقول ﴿**فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون**﴾ (سورة النحل ٧٤). ويقول البيضاوي في تفسير هذه الآية: «فلا تضربوا لله الأمثال فإنه يعلم كيف يضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون. ثم علمهم كيف يضرب فضرب مثلا لنفسه ولمن عبد دونه» وهذا المثل هو مثل ﴿**عبدا مملوكا**﴾. فلذلك من الواضح أن البيضاوي يؤثر تفسير المثل الأول بالأصنام والله.

## الجلالين

هما جلال الدين السيوطي (ت. ٩١١هـ / ١٥٠٥م) وأستاذه جلال الدين المحَلّي (ت. ٨٦٤ هـ / ١٤٥٩م). في تفسيرهما الوجيز يقولان إنّ المثل الأول



يمثل الأصنام والله بينما المثل الثاني يرمز إلى الكافر والمؤمن. وهذا غريب بعض الشيء لأنه لا يوجد في التفاسير السابقة التي قرأتها. لكن الجلالين يذكران أيضا التفسير العكسي بعد ذلك أيْ المثل الثاني لله و الأصنام والمثل الأول للكافر والمؤمن إلا أنهما لا يقولان أكثر من ذلك.

## الختام

ليس هناك دليل قاطع يدفعنا إلى تفسير معين لهذين المثلين. وجاء المفسرون القدماء بكل الاحتمالات: المثلان كلاهما للكافر والمؤمن (ابن عباس) أو للأصنام ولله (مجاهد والرازي والقرطبي) أو المثل الأول للكافر والمؤمن بينما المثل الثاني يشير إلى الأصنام والله (قتادة والطبري) أو العكس (الجلالين). انظر ملخص مواقف المفسرين في الجدول الذي يلي هذا الختام.

ونبعت التفاسير المختلفة من ترجيح دليل من الدلائل على الآخر، ففسّر الرازي المثلين بأنهما أُطلِقا على الله و الأصنام وهو يستدل بالسياق الذي يتناول التوحيد ويصرف النظر عن اعتراض الطبري على تشبيه الله بـ ﴿**من رزقناه**﴾ إذ أنه لا يليق بالله الرازق. غير أن أهمّ وجه تشبيه عند الرازي لا يوجد في تشبيه الله بـ﴿**من رزقناه**﴾ وتشبيه الأصنام بـ﴿**عبدا مملوكا**﴾ بل في الفرق الكبير بينهما. وبالنسبة إلى المثل الثاني ليس هناك خلاف شديد بين المفسرين، وطبّقه معظمهم على الأصنام والله.

في الختام يشير الآيتان إلى عنصرين لا يتساويان على الإطلاق وليس هناك دليل واضح قاطع في نص القرآن يفسر قصد هذين المثلين. لعلهما يطلقان على أي عنصرين مختلفين تماما في الدين والأخلاق مثل الله والأصنام أو المؤمن والكافر أو الخير والشر أو الطاعة والعصيان أو الأعمال الصالحة والخطايا. وبرغم وجود ضرب من الغموض في هاتين الآيتين فإن المغزى أن هناك فرقا بيّنا في أمور حياة الإنسان وخاصة في الأمور الدينية، فليس كل أمر بنفس الوزن

أو القيمة، لذلك على الإنسان أن يختار بين طريقين في حياة الدنيا، ومن الأفضل أن يسير على الدرب الصحيح.

## جدول ملخص التفاسير للآيتين ٧٥ و٧٦ من سورة النحل

| | الآية ٧٥ | | الآية ٧٦ | |
|---|---|---|---|---|
| | عبداً مملوكاً | من رزقناه | أبكم | من يأمر بالعدل |
| ابن عباس (ت. ٦٨٨م)* | كافر | مؤمن | كافر | مؤمن |
| ابن عباس (سبب النزول)* | عبد رجل من قريش | رجل من قريش | مولى عثمان ابن عفان | عثمان بن عفان |
| مجاهد (ت. ٧٢٢م)* | الوثن | الله | الوثن | الله |
| قتادة (ت. ٧٣٥م)* | كافر | مؤمن | الوثن | الله |
| الطبري (ت. ٩٢٣م) | كافر | مؤمن | الصنم | الله |
| الرازي (ت. ١٢٠٩م) | الأصنام | الله | الأصنام | الله |
| القرطبي (ت، ١٢٧٢م) | الأصنام | الله | الوثن | الله |
| البيضاوي (ت. ١٢٩١م؟) | الأصنام أو كافر | الله أو مؤمن | الأصنام أو كافر | الله أو مؤمن |
| ابن كثير (ت. ١٣٧٣م) | ملخَّص تفسير الطبري | | ملخَّص تفسير الطبري | |
| الجلالين (القرن ١٥م) | الأصنام | الله | كافر | مؤمن |

* كما ورد في تفسير الطبري.